

الانثروبولوجيا التربوية وقضايا المؤسسات المدرسية

الدكتورة سميرة بولقدام

جامعة سعيدة

الملخص:

فرع جديد وليد من الأنثروبولوجيا هو الأنثروبولوجيا التربوية، التي تبحث في العملية التربوية في مختلف الأنظمة الاجتماعية القديمة والحديثة، فالأنثروبولوجيا التربوية تتناول القضايا التربوية أين تتفاعل فيه كل الجزئيات والمواقف والمعاني والدلالات التي تشترك في بناء الجانب التربوي، لكن لا تزال الحقيقة التربوية في جانبها الأنثروبولوجي بعيد المنال في ثقافتنا التربوية وفي مجال حياتنا الأكاديمية التي تكاد تخلو إلا من بعض الدراسات الأنثروبولوجية التربوية النادرة التي نصادفها في بعض الكتب التربوية وعلى بصفة مختصرة، مما يدل على ضعف كبير في حضور هذا العلم في الأنساق المعرفية العربية بصورة عامة، فالساحة التربوية والفكرية العربية تكاد تخلو أو تخلو تماما من الدراسات والترجمات التي تتعلق بهذا المجال العلمي الذي يعد بحق من أكثر المجالات العلمية أهمية في المجال التربوي على وجه التحديد، فجاء المقال ليعالج الموضوع بتقديم إجابات عن تحليلات هذا العلم.

الكلمات المفتاحية: الانثروبولوجيا التربوية، المؤسسة المدرسية، ثقافة المدرسة، مناهج الأنثروبولوجيا .

Résumé: l'anthropologie éducative, regardant le processus éducatif dans les différents systèmes sociaux anciens et modernes éducatif traitant des questions d'éducation où elle tous les détails, les attitudes, les significations et les connotations impliquées dans la construction de la Interagir côté éducatif, mais la réalité reste éducative de son côté loin anthropologique Dans notre culture éducative et dans le champ de notre vie académique qui est presque dépourvue de quelques rares études anthropologiques éducatives que nous rencontrons dans certains livres éducatifs et en bref, ce qui indique une grande faiblesse dans la présence de cette science Dans les formats de la langue arabe cognitive en général, scène arabe éducatif et intellectuel dans presque dépourvu ou totalement dépourvues d'études et de traductions qui sont liées à ce domaine scientifique dans lequel le droit des domaines les plus scientifiques est important dans le domaine de l'éducation en particulier, est venu l'article pour répondre à la question d'apporter des réponses aux manifestations de cette science.

Mots-clés: Anthropologie éducative, Institution scolaire, Culture scolaire, Anthropologie

الأنثروبولوجيا التربوية وقضايا المؤسسات المدرسية

الدكتورة سميرة بولقدام

جامعة سعيدة

مقدمة :

تعتبر الأنثروبولوجيا علم من العلوم التي تتناول الأسطورة والرمز والخيال والدين في المجتمعات القديمة، وقد لفت انتباهنا فرع جديد وُلِدَ من الأنثروبولوجيا هو الأنثروبولوجيا التربوية، التي تبحث في العملية التربوية في مختلف الأنظمة الاجتماعية القديمة والحديثة، فالأنثروبولوجيا التربوية تتناول القضايا التربوية أين تتفاعل فيه كل الجزئيات والمواقف والمعاني والدلالات التي تشترك في بناء الجانب التربوي حيث يتم استخدام الرموز والدلالات والمعاني والكلمات والإشارات والإيماءات في عملية توصيف الفعل التربوي واستخراج الحقائق الكامنة فيها .

لكن وللأسف لا تزال الحقيقة التربوية في جانبها الأنثروبولوجي بعيد المنال في ثقافتنا التربوية وفي مجال حياتنا الأكاديمية التي تكاد تخلو إلا من بعض الدراسات الأنثروبولوجيا التربوية النادرة التي نصادفها في بعض الكتب التربوية وعلى بصفة مختصرة، مما يدل على ضعف كبير في حضور هذا العلم في الأنساق المعرفية العربية بصورة عامة، فالساحة التربوية والفكرية العربية تكاد تخلو أو تخلو تماما من الدراسات والترجمات التي تتعلق بهذا المجال العلمي الذي يعد بحق من أكثر المجالات العلمية أهمية في المجال التربوي على وجه التحديد .

ومنه سوف نحاول من خلال هذا المقال المتواضع، سوف نحاول ووضعه هذا التخصص في سياق علمي من حيث تقديم إجابات عن تجليات هذا العلم وفقا للأسئلة التالية: ما المراحل التاريخية التي مرّ بها تطور الأنثروبولوجيا التربوية ؟ ما مفهوم الأنثروبولوجيا التربوي ؟ ما هي مناهجها ؟

1-لمحة تاريخية :

كان مجال البيداغوجيا التربوية، في منظور المربين والمفكرين على اختلاف مذاهبهم تعتبر "تابو"، ولكن هذه الفكرة بدأت تتغير بتأثير وقائع أنثروبولوجية جديدة تتعلق بنشأة الأنثروبولوجيا التربوية وحضورها الكبير في ميدان البحث التربوي، فالأنثروبولوجيا تتجلى بقوة في مسرح الحياة التربوية من المؤتمرات العلمية المتواترة، وفي خلال تضاعف أعداد الدوريات والمجلات العلمية الأنثروبولوجيا، وفي الأبحاث الأنثروبولوجيا التربوية المتنامية والمتكاملة.

وقد وقع أخيرا في اعتقاد المربين أن هذه الأنثروبولوجيا ليست مجالا فرضه التقدم العلمي، بل هي استجابة حقيقية لمشكلات وتحديات تربوية كبرى فرضتها وقائع الحياة المعاصرة في مختلف مستوياتها الاجتماعية و الإيستيمولوجية، وهذا النمو الكبير والاتساع المظفر للأنثروبولوجيا التربوية لا يشكل تطفلا أو تهديدا للعلوم التربوية الكلاسيكية (فلسفة التربية، علم الاجتماع التربوي، علم النفس التربوي) بل وعلى خلاف ذلك فإنه يعزز مسار هذه العلوم يستفيد منها ويعمل على تحقيق التقارب فيما بينها، والتلاقي بين معطياتها وتوحيد اتجاهاتها في مسار الحقيقة الإنسانية في تجلياتها التربوية¹. فالأنثروبولوجيا التربوية تستجيب لتساؤلات وجودية حيوية جديدة في الحياة التربوية، تتمثل، في العنف التربوي، والتمييز الاجتماعي، والتعصب، والعودة إلى المقدس، وتراجع القيم، وظهور أنماط جديدة للعلاقات الاجتماعية، وأزمة الهوية، وأزمة الانتماء، وتفكك الأسرة، والقضايا التربوية للفئات. وهذه

الظواهر تأخذ حضورها الكبير في مجال سلوكنا وحياتنا اليومية والتربوية²، هنا يبرز دور الأنثروبولوجيا التربوية في إحالة هذه القضايا إلى مسار التوجهات العقلانية فما لأسبابها واستكشافا لماهيتها الغامضة ، ففي هذا المسار تعمل الأنثروبولوجيا على تنظيم هذه القضايا في سياقها الثقافي والاجتماعي والانتقال بها من صورة التعقيد التي هي عليه إلى الوضوح الأنثروبولوجي في أسمى معانيه.

2-تعريف الانثروبولوجية التربوية:

والأنثروبولوجيا التربوية فرع نشأ من الأنثروبولوجيا الثقافية تحديداً، وهي فرع علمي يوظف المناهج الأنثروبولوجية في دراسة الظواهر التربوية ومؤسسات التنشئة الاجتماعية على نحو شمولي وكلي، ويمكن القول في هذا السياق إن الأنثروبولوجيا التربوية قد نشأت وتطورت تحت مظلة الأنثروبولوجيا الثقافية التي غالباً ما تركز على العلاقة الجوهرية بين الشخصية والثقافية، وتعد الأنثروبولوجيا التربوية من أحدث الفروع العلمية الاجتماعية والأنثروبولوجيا، ونشير إلى أن تطور الأنثروبولوجيا التربوية يرجع إلى عام 1955 عندما نشر سبنذر G. D. Spindler كتابه المعروف التربية والأنثروبولوجيا Education and Anthropology في ستانفورد. وتتمركز المحطة الثانية في عام 1970³ أي في السنة التي تمّ فيها تأسيس مجلس الأنثروبولوجيا والتربية Council of Anthropology and Education بإشراف الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية American Anthropological Association وتنظم المحطة الثالثة مع ظهور الدورية العلمية الفصلية التي حملت اسم الأنثروبولوجيا والتربية Anthropology and education Quarterly في عام 1978، وقد ظهرت الأنثروبولوجيا التربوية وعملت على تحقيق استقلالها من خلال التجاوب مع الضرورة الاجتماعية والاحتياجات العلمية في نهاية عام 1960 ولاسيما في معترك الصراع مع علم النفس التربوي.

3-عوامل نشأة انثروبولوجيا التربية :

تضافرت ثلاثة عوامل في توليد اهتمام الأنثروبولوجيين بالتربية وقضايا المؤسسات المدرسية، وفي نشوء الأنثروبولوجيا التربوية كفرع من فروع الأنثروبولوجيا العامة وهي⁴ :

أ-العامل الأول: يتمثل في الأزمة الاقتصادية التي واجهتها الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1960، حيث وجهت الدعوة إلى الأنثروبولوجيين للمشاركة في مواجهة هذه الأزمة ولاسيما المشكلات والتحديات التي واجهت نظام التعليم القومي في الولايات المتحدة ولاسيما الصعوبات والمشكلات التي كان يواجهها الفقراء والأقليات، وفي هذا السياق نادى فريق من الأنثروبولوجيين لدراسة المؤسسات المدرسية أمبير قيا في الحال لمواجهة الأزمة الاجتماعية ولاسيما المؤسسات المدرسية التي يرتادها الفقراء وأبناء الأقليات، ومن أجل تقديم الإجابات العلمية حول هذه الأزمة بمعطياتها المختلفة أجرى ستانلي دياموند Stanley Diamond دراسته المعروفة بعنوان ثقافة المدرسة Culture of the School في عام 1966، وقد حرص دياموند في هذه الدراسة على وصف الأوضاع التربوية القائمة وتوجيه النقد الأنثروبولوجي للمؤسسات المدرسية القائمة في تلك المرحلة، واستطاع عبر هذه الدراسة أن يدعو إلى تنظيم ندوات تدور حول المشكلات التربوية لهذه المؤسسات ودراسة العلاقة بين هذه الأوضاع المدرسية والأزمة السياسية والاجتماعية التي كانت تضرب البلاد، وقد قدمت نتائج هذه الدراسة الهامة إلى المكتب القومي للتربية في الولايات المتحدة الأمريكية United States Office Of Education في عام 1966، وقد نشرت نتائج هذه الدراسة في كتاب بعنوان المنظور الأنثروبولوجي للتربية Anthropological perspective on education في عام 1971 .

ب-العامل الثاني: شجع على ولادة الأنثروبولوجيا التربوية ونهضتها في الستينات، ضرورة الرد على الاتجاهات السيكولوجية للثقافة وتفنيد التصورات والمنطلقات الخاطئة فيها، فالمنظور الثقافي للأنثروبولوجيا التربوية ينطلق من معطيات مادية واجتماعية، حيث تقدم نسقا من السمات والخصائص التي تتميز بها الثقافة الخاصة بالعمال وتلك الخاصة بالطبقة البرجوازية لأغراض المقارنة بين مختلف الثقافات الطبقية في دائرة المجتمع المحلي، وقد بينت الدراسات الأنثروبولوجيا وجود فروق ثقافية واضحة المعالم بين ثقافة الجماعات والأقليات العرقية والدنيا في المجتمع بالمقارنة مع تلك التي تهيمن في الأوساط البرجوازية البيضاء وافترضت هذه الدراسات أن أبناء الفئات الدنيا في المجتمع يعانون من ضعف ثقافي كبير، ولكن هذه النتائج تعرضت لموجة من الانتقادات الحادة من قبل عدد من الأنثروبولوجيين الذين اعتقدوا بأن الفوارق الثقافية ناجمة عن التباين في أوضاع المؤسسات المدرسية التي تتباين مع تباين الفئات الاجتماعية الدنيا في المجتمع، فأطفال الفقراء يخفقون في المدارس تحت تأثير الأوضاع المزمنة للمؤسسات المدرسية التي يرتادونها وتحت تأثير الأوضاع الصعبة للحياة الاجتماعية الفقيرة التي تحيط بهم⁵.

ج-العامل الثالث: في الجهود التي بذلها الأنثروبولوجيين لدراسة المؤسسات المدرسية والخوض في قضاياها ومشكلاتها الحيوية، ومن أجل تعزيز هذه الجهود عمل الأنثروبولوجيون المعنيون بالمؤسسة المدرسية على إنشاء جمعية تتكون من فريق من الباحثين كانت مهمتهم بناء البرامج الأنثروبولوجيا ونشرها في المؤسسات المدرسية، وقد عملت هذه الجمعية الأنثروبولوجيا على جعل برامجها أكثر وضوحا فعززت حضورها في برامج المعاهد والمدارس العليا في تلك المرحلة، وفي هذه المرحلة بدأ مركز التنمية التربوي في جامعة هارفارد بتطوير برامج انثروبولوجيا تربوية للمدارس العليا المتوسطة. واستطاع هذه الجهود مجتمعة أن تقوم بأعمال كبيرة وهامة أدت إلى توسع وانتشار الأنثروبولوجيا التربوية وحضورها المظفر في

الوسط التربوي في الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يكتف رواد هذا الاتجاه الأنثروبولوجي التربوي عند حدود تعزيز هذا الاختصاص في المؤسسات المدرسية وتقديم الكتب والمراجع المدرسية، بل عملوا في الوقت نفسه على تكثيف جهودهم البحثية وتأصيل نتائجها في مضمار الحياة المدرسية في عدد كبير من المؤسسات المدرسية والتعليمية التي اختاروها بعناية ودراسة، وقد عملوا أيضا على نشر نتائج أبحاثهم ودراساتهم بصورة مكثفة ومنظمة أدت إلى بلورة هذا الاختصاص العلمي بوضوح وقوة في داخل الحياة التربوية والمدرسية⁶. ومما لا شك فيه أن هذه الجهود قد عملت بالنتيجة على التوسع في هذا الميدان توسعا يتطلب إعداد مدرسين للأنثروبولوجيا التربوية في المؤسسات المدرسية، وقد عمل هؤلاء المدرسين بدورهم على تأسيس جمعيات واتحادات ونقابات متخصصة في مجال الأنثروبولوجيا التربوية، وهذا بدوره أعطى هذا الاختصاص حضورا كبيرا ونشطا في مختلف الأنساق المدرسية في الولايات المتحدة الأمريكية. وشهدت مرحلة الستينات نشاطا علميا كبيرا في مجال الأنثروبولوجيا التربوية تجلّى في نشر عدد من الكتب والأبحاث الهامة، وقد نشرت هذه البحوث في مجلة البحوث التربوية. ولكن الأنثروبولوجيا التربوية لم تصبح علما مستقلا وحقيقا إلا فيما بعد عام 1970 وذلك باعتراف أغلب الباحثين والمفكرين في هذا الميدان وقد أعلن لنكس Linquist هذا الأمر بوضوح فالأنثروبولوجيا التربوية برأيه لم تحقق استقلالها كعلم مستقل وذلك لأنها لم تحقق الحد المطلوب من التراكم البحثي والموضوعي في ميدانها الخاص، وقد أعلن في حينها أيضا أن هذه الأنثروبولوجيا لم تستطع أن تقدم مفاهيمها الخاصة المتجانسة في مجال الأبحاث الدائرة في الأنساق المدرسية والتربوية. وفيما بعد عام 1970 بدأت الأعمال الأنثروبولوجية التربوية تتجه إلى تعميق الأطر النظرية والفلسفات والمفاهيم بصورة واضحة حيث تمت الاستفادة الكبيرة من البحوث الأنثروبولوجيا في مجال الثقافة والشخصية التي شكلت تراثا أنثروبولوجيا يتميز بخصوبته وفعاليته.

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) العدد العشرون 20 يناير 2018

• الأنثروبولوجيا التربوية في الو.م.ا : ولدت الأنثروبولوجيا التربوية الأمريكية في أحضان الأنثروبولوجيا الثقافية المعنية بمسألة التحويل الثقافي وهذا ما تبرهن عنه الأعمال المتنوعة للباحثين الأنثروبولوجيين في هذا المجال أمثال بواز وسبندلر وروث بنديكت Ruth Benedict، ومارغريت ميد Margaret Mead التي عرفت في عملها المعروف "سن البلوغ في الساموا Coming of Age in Samoa" في عام 1928. ومما لا شك فيه أن الأعمال والدراسات التي أجراها عدد من الأنثروبولوجيين والتي نشرها سبندلر كان لها أكبر الأثر في استقلال هذه الأنثروبولوجيا كعلم مستقل عن الأنثروبولوجيا الثقافية، ويعد كتاب سبندلر George Louise Spindler التربية والثقافة (1955) Education et Culture الذي نشر في عام 1955 في طليعة الأعمال التي مهدت لنشأة هذا العلم واستقلاله لاحقا، ويلاحظ في هذا السياق أن الأعمال التي نشرها سبندلر Spindler وموري Murray وروزالي واكس Rosalie Wax لم تقف عند حدود الاهتمام بعملية التطبيع الثقافي، بل تجاوزت هذا المجال إلى دراسة عدم المساواة في التعليم والتربية في ضوء العوامل والمتغيرات الاجتماعية التي أحاطت بالأطفال والتلاميذ في تلك المرحلة التاريخية، ولاسيما العوامل العرقية في الولايات المتحدة الأمريكية، وشهدت هذه المرحلة ولادة ما يسمى بأنثروبولوجيا المدرسة انطلاقا من النظر إلى المدرسة بوصفها مؤسسة اجتماعية، وقد أسس هذا الفرع العلمي الجديد تحت تأثير الاهتمام الكبير الذي أثارته أعمال سبندلر من رواد الأنثروبولوجيا الثقافية في ذلك الوقت، ويجدر بالذكر أن الموضوع الأساسي للدراسات الأنثروبولوجيا التربوية كان يتمحور حول دراسة التباين والفروق الثقافية بين المدرسة من جهة وبين السكان الذين ينحدرون من أقليات عرقية.

• الأنثروبولوجيا التربوية في بريطانيا : في بريطانيا وفي الفترة الممتدة بين عامي 1920 و 1930، وتحت تأثير المدّ الكبير لنظرية برونيسلو مالينوفسكي Bronislaw Malinowski، في

التحويل الثقافي اهتمت كوكبة من الأنثروبولوجيين بزعماء راييموند فيرث Firth Raymond وأودري ريتشارد Audrey Richards بمسألة التحويل الثقافي التي تشكل المسألة الأساسية في نظرية مالبينوفسكي 2001 وفي مرحلة لاحقة برز اهتمام ماركس كلوكمان Max Gluckman - أستاذ علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية في جامعة مانشستر - بالقضايا التربوية من وجهة نظر أنثروبولوجية وعزز هذا التوجه في قسمه العلمي، ومن ثم أحدث اهتمامه هذا تأثيرا كبيرا حيث أجريت أبحاث هامة أشرف عليها كل من هارغريف D.H. Hargreaves وColin Lacey حول أوضاع المدارس في بريطانيا ومع ذلك يمكن القول بأن الأنثروبولوجيا لبريطانيا تمحورت حول المؤسسات الاجتماعية بدرجة أكبر من المؤسسات الثقافية ولم تشجع بصورة عامة على دراسة عملية التحويل الثقافي المتطورة في الولايات المتحدة الأمريكية وهناك عدد قليل من الباحثين الذين أولوا هذه المسألة اهتمامهم.

وفي هذا السياق فإن الإثنوغرافيا Ethnographie البريطانية قد تطورت على أيدي علماء الاجتماع بدون أي تأثير من قبل الأنثروبولوجيا، وتشهد الساحة الفكرية بوجود عدد من علماء الاجتماع التربويين الذين لم يستخدموا كلمة ثقافة ولم يعرفوا أبحاثهم التي اعتمدت منهج دراسة الحالة على أنها دراسات أنثوغرافية، وإذا كانت الإثنوغرافيا تشكل علما اجتماعيا يتقصى وجهات نظر الأفراد المبحوثين، ويبحث في الكيفية التي يعطي فيها الأفراد معنى لحياتهم اليومية، فإن علم الاجتماع التربوي في بريطانيا يجري دراسات تقع تحت مظلة الإثنوغرافيا، وفي كل الأحوال فإن عددا من الدراسات الجارية البريطانية التي كان لها أثر كبير في الباحثين الأمريكيين مثل كيدي 1971 Keddie وويلس 1977 Willis، ركزت على دراسة البناء المعنى الذي يضيفه المعلمون والتلاميذ على حياتهم في سياق حياتهم التربوية اليومية. وقد أنشأ البريطانيون مجلة دولية جديدة عنوانها الإثنوغرافيا والتربية Ethnography and Education التي هدفت إلى فهم ثقافات الجماعات المدرسية⁸

ويمكن القول في هذا السياق إنه لطالما تمّ تمييز الإثنوغرافيا التربوية البريطانية عن الأنثروبولوجيا التربوية الأمريكية، وأن هذا التمييز قد تناقصت أهميته في الوقت الحالي، فالبريطانيون ما زالوا يأخذون بهذه الفروق بين الفرعين في الوقت الذي يعطيه الأمريكيون أهمية أقل بكثير، فعلى سبيل المثال: ينظر الباحثون البريطانيون إلى المعلم بوصفه أحد العمال في المؤسسة المدرسية بينما ينظر إليه الباحثون الأمريكيون بوصفه خصما للطلاب والتلامذة في المدرسة.

• الأنثروبولوجيا التربوية في فرنسا: لم يكن للأنثروبولوجيا الفرنسية ولاسيما الاجتماعية منها حتى اليوم اهتمام كبير بالمسألة التربوية في فرنسا، ويشار في هذا الصدد إلى الدراسات الإثنوغرافية التي أجراها بيير بورديو في Pierer Bourdieu هذا الحقل، ويضاف إلى ذلك أن بعض الباحثين الإثنولوجيين الفرنسيين قاموا بدور كبير في هذا الميدان ولاسيما هؤلاء الذين درسوا عمليات التنشئة الاجتماعية والتطبيع الثقافي في المؤسسات التربوية غير المدرسة، وفي هذا المستوى يمكن القول بأن الإثنوغرافيا الفرنسية قد تطورت على أيدي علماء الاجتماع المدرسة بوجه خاص، وهذا الأمر ينسحب على الإثنوغرافيا التربوية في بريطانيا، وفي كل الأحوال فإن عددا من علماء الاجتماع الفرنسيين اهتموا بقضايا المهاجرين بدرجة أكبر من زملائهم البريطانيين، ويشار في هذا الصدد إلى الأنثروبولوجي الفرنسي المعروف زانتين Henriot van Zanten الذي كان أحد زملاء سبنذر أثناء دراسته في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد ركز في أبحاثه على المايكروسوسيولوجي في دراسة المؤسسات التربوية، وقد أجرى زانتين van Zanten دراسة حقلية في ثلاثة مدارس في الريف الفرنسي حول الأوضاع التربوية في فرنسا. وقد شهدت الساحة الفرنسية عددا محدودا من الدراسات التربوية الإثنوغرافية بصورة عامة.

• الأنثروبولوجيا التربوية في كندا: تأثرت الأنثروبولوجية الفرنسية في كندا بالأدبيات الأنثروبولوجية في أوروبا وفي أمريكا على حدّ سواء، وبينما اهتم كل من سانتير وميرسييه ترمبلي Santerre

Mercier- Tremblay 1982 & بالأنثروبولوجيا التربوية الكلاسيكية اهتم الأنثروبولوجيون الكويكيون (المقاطعة الفرنسية) ⁹ بدراسة الأوضاع التربوية في بلادهم أسوة بزملائهم في فرنسا متأثرين بمدرسة شيكاغو بدرجة أكبر من الأنثروبولوجيا الثقافية، وقد شهدت الساحة الكندية نشاطا بحثيا مكثفا حول مناهج البحث التي ارتدت حلتها الواضحة وخرجت من عباءة الغموض الذي يكتنف البحث الأنثروبولوجي في أوروبا وأمريكا، وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى الدراسة الهامة التي أجراها تارديف وليمزار Tardif & Lessard. 1991 حول الحياة اليومية للمدرسين وأفكارهم، وفي هذا المقام يمكن القول بأن هناك تباعد بين الأنثروبولوجيين الكويكيين وزملائهم الفرنسيين حيث أبدوا اهتماما أكبر بالجماعات المغلقة والأقليات وكذلك الحال فيما يتعلق بالهوية الثقافية للجماعات المدروسة.

4- مناهج الأنثروبولوجيا التربوية:

يشكل المنهج الوصفي الإثنوغرافي والبحث الميداني الذي يقوم على التفاعل المباشر مع الظاهرة المدروسة المنهج الأساسي للأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا التربوية الذي يركز على مبدأ المشاركة الحية للباحثين في فعاليات الظاهرة المدروسة، ويتطلب هذا المنهج فترة طويلة من الزمن يتوجب فيها على الباحث معايشة الظاهرة والتفاعل معها وفي الحدود الدنيا أن سجل نسبة كبيرة من الحضور الزمني للتعايش الفعلي مع معطيات الظاهرة المدروسة، وتتجلى هذه الممارسة المنهجية في دراسة الأحياء الشعبية والقرى وبعض المناطق النائية وهذا ينسحب أيضا على المؤسسات المدرسية والتربوية بصورة عامة. ويتميز المنهج الأنثروبولوجي بارتكازه الأساسي على ثقافة المشاركة الحية والتفاعل المباشر مع الظاهرة قيد الدراسة، وهو بذلك يتصف بالبساطة والعفوية، ولكن هذا المنهج الوصفي الأنثروبولوجي يعتمد تقانات أخرى مختلفة لأداء البحث العلمي في أكمل صورة متوخاة له، فالأنثروبولوجيون يعتمدون في أداء عملهم البحثي الاستبيان والمقابلة والوصف والوثائق والسير الذاتية والملاحظة والمقارنة وكل

الأدوات التي تساعد في استكشاف أبعاد الظاهرة المدروسة واستقرائها، كما يستخدمون التسجيل الصوتي والمرئي والتدوين المستمر للملاحظات، ويضاف إلى ذلك أن هذا المنهج يعتمد في كثير من فعالياته على جمع البيانات الكمية لاستكمال الصورة الحقيقية للظاهرة المدروسة.¹⁰ ويؤكد مالنوفسكي في هذا الخصوص على ضرورة أن يتعايش الباحث الأنثروبولوجي مع المجتمع المدروس، لأنه كما يعتقد لا يمكن فهم الحياة الاجتماعية لدى شعب من الشعوب البدائية إلا إذا درست دراسة عميقة ومركزة تقوم على اندماج الباحث في داخل الجماعة المدروسة والتفاعل معها حتى يصبح وكأنه أحد أفرادها في مختلف مستويات تفاعلها الثقافي والاجتماعي والأخلاقي، وقد نفذ مالنوفسكي تأكيده هذا عندما درس قبائل "التروبرياندر" إحدى قبائل شرق آسيا الكبيرة، دراسة مطولة استغرقت أربع سنوات، وكان أول من استخدم لغة الأهالي في جمع المعلومات، وقد أتاحت له هذه المدة الطويلة فرصة التعمق والتغلغل في الحياة الاجتماعية لتلك القبائل.

ويمكن الإشارة إلى وجود عدة أنماط من البحوث الإثنوغرافية الوصفية للأنثروبولوجيا التربوية، ويمكن التمييز في هذا الخصوص بين ثلاثة أنماط أساسية:

أ- البحوث الوصفية الشمولية: حيث يقوم الباحث بتقديم وصف شمولي لمختلف جوانب الحياة والوجود للجماعة المعنية بالدراسة سواء أكانت هذه الجماعة جماعة مدرسية (فصل مدرسي) أو مدرسة، أو جماعة أقران مدرسية، أو جماعة من المعلمين، ويكون هذه البحث في هذا المستوى تقديم وصف كامل لمختلف المعطيات والتقاطعات والمضامين بالجماعة موضوع البحث، وهذا النوع من البحوث يركز على وصف العادات والذهنيات والعقائد والنشاطات ومختلف الفعاليات التي تتصل بالجماعة موضوع الدراسة¹¹.

ب- البحوث التي تركز على جانب معين من جوانب حياة الجماعة مثل: العقيدة، أو التعليم، أو الإبداع، أو التفاعل المدرسي، أو العنف المدرسي، فالتركيز هنا يكون حول قضية ما معينة يتم الخوض في مختلف جوانبها وعواملها ومتغيراتها.

ج- بحوث تركز على فرضية بحثية يقوم الباحث الأنثروبولوجي باختبارها والتأكد من معطياتها وقد تكون هذه الفرضية جديدة أو مستمدة من بحوث أنثروبولوجية سابقة، والمهم في الأمر أن جهود الباحث تدور حول الفرضية دون غيرها من القضايا التي تتصل بالظواهر المدروسة.

ويمكن أن نجد تصنيفات أخرى للبحث العلمي في مجال الأنثروبولوجيا التربوية، فهناك البحوث الشمولية الماكروانثروبولوجية Macroantropologie وهناك البحوث التي تأخذ طابعا مصغرا لجماعة محددة أو مجال مصغر ويطلق عليها الميكروانثروبولوجية.

ومن الدراسات التي اتخذت طابعا شموليا يشار إلى دراسة J.ogbu التي أجراها في كاليفورنيا¹² عام 1974، حيث تناول في دراسته هذه جماعة السود المحلية في نسق علاقاتها بالمؤسسات المدرسية التي يرتادها، وقام بدراسة العلاقة بين المدرسة والصف من جهة والأوضاع المهنية والاقتصادية للسكان السود في هذه المنطقة وعلى خلاف هذه الرؤية الشمولية للظواهر المدروسة فإن " الميكروانثروبولوجية " تركز على الوحدات الصغرى قدر الإمكان وتدرس العلاقات الداخلية في هذه الوحدات مثل جماعة الصف، أو جماعة القران، أو جماعة من المدرسين في مدرسة ما معينة، وفي الحدود القصوى قد تشكل المدرسة وحدة دراسية يتم فيه دراسة العلاقات الداخلية بين مكوناتها بين المعلمين والمتعلمين والإدارة.

ومن الإشكاليات التي يعانيتها الباحثون في مجال الأنثروبولوجيا التربوية صعوبة تحليل المعطيات الهائلة التي يحصلون عليها عبر التسجيل الصوتي والمرئي والملاحظات اليومية التي غالبا ما تشكل ركاما من المعلومات الخام التي تحتاج إلى تحليل وتصنيف وتنظيم وتفسير، ومن

الواضح أن الأنثروبولوجيا الكلاسيكية لم تضع أي منهج محدد في طريقة التعامل مع المعلومات والبيانات فيما يتعلق بتصنيفها وتنظيمها وتفسيرها أيضا. وفي مواجهة هذه المعضلة بدأ بعض الباحثين الأنثروبولوجيين التربويين باستكشاف تقنيات محددة للتعامل مع البيانات والمعطيات البحثية التي تتميز بغزارتها وتدفعها. ومما لا شك فيه أن الأنثروبولوجيا التربوية قد تعرضت في هذا المستوى لعدد كبير من الانتقادات من قبل الباحثين والمفكرين في العلوم الاجتماعية الأخرى، وتصب هذه الانتقادات حول طبيعة الفرضيات والبيانات والتقنيات البحثية المعتمدة في هذا الفرع العلمي الناشئ، وقد أثمرت هذه الانتقادات الكثيرة في تصويب وتصحيح المسارات المنهجية للأنثروبولوجيا التربوية التي بدأت بابتداع طرائق ومناهج وتقنيات أكثر كفاءة وقدرة على تناول المعطيات الخام وتحويلها إلى طاقة فكرية تفسيرية.

5-الصعوبات التي واجهت الانثروبولوجية التربوية : من بعض الصعوبات نذكر ما يلي

- تفيد هذه الفرضية بأن جميع الأطفال يخضعون لعملية تحويل ثقافي منذ الطفولة حتى المدرسة، وأن المدرسة تشكل مجرد حلقة من حلقات هذا التحويل، وفي هذا الافتراض تختفي معالم التباين في عملية التثقيف بين الأطفال وفقا لظروفهم وأوضاعهم الاقتصادية.
- تتضمن هذه الفرضية فكرة أساسية قوامها أن عملية التثقيف هذه لا يمكن أن تفهم بصورة منعزلة عن ذهنية الطفل نفسه، وهذا يعني أن إدراك ما يجول في ذهنية الطفل يشكل ضرورة حيوية في فهم مسار وموضع عملية التحويل الثقافي ذاتها.
- وتقتضي هذه الفرضية بأن وظيفة المدرسة لا تقتصر على عملية التحويل الثقافي فحسب حيث تؤدي وظائف أخرى متعددة وهي ترتبط ارتباطا وثيقا مع عدد كبير من المؤسسات الاجتماعية والتربوية، ويترتب على هذا التصور أنه لا يمكن دراسة المؤسسة المدرسية بصورة

مستقلة عن الوسط الذي يتكامل ويتفاعل معها وظيفيا واجتماعيا.¹³ وينبني على الفرضية أيضا أن المدرسة تشكل انعكاسا عفويا وطبيعيا للمجتمع الحاضن لها، ووفقا لهذا التصور فإن المدرسة تشكل صورة للأدوار والفاعليات والهويات والصراعات الاجتماعية للوسط الاجتماعي الذي تكمن فيه. وقد حاول سبندلر Spindler في هذا السياق أن يقدم نماذج انثروبولوجية لتفسير الكيفية التي تؤديها المدرسة في عملية التحويل الثقافي في داخل المجتمع، وفي دائرة هذه المحاولة عمل على تفسير العلاقة بين التغير الثقافي وخيارات الأفراد الثقافية، هنا يبين سبندلر أن الأنظمة الثقافية تعمل بفعالية كبيرة وفترات زمنية أطول طالما استطاعت أن تنتج قيما وأنماط ذهنية وفكرية مقبولة ومتوقعة ومرغوبة، فالنشاطات والفاعليات والدهنيات تشكل الأدوات الأساسية لتحقيق الأهداف الثقافية في داخل المجتمع وبالتالي فإن هذه الأدوات هي التي تحدد أنماط السلوك في ثقافة الجماعة أو المجتمع¹⁴، وهذا يعني في النهاية أن العلاقات القائمة بين السلوكات والنشاطات والأهداف هي علاقات الذاتية Realations Insrumentales ومن ثم فإن هذه العلاقات تشكل جوهر النظام الثقافي القائم في المجتمع أو الجماعة المعنية، ويضاف إلى ذلك أن هذه العلاقات تشكل الأساس الحيوي لنظام القيم والمعايير في داخل الثقافة نفسها، ومن هذا المنظور فإن المدرسة والأسرة والعائلة وجماعات الأقران والمؤسسات الدينية والطقوس الاجتماعية هي التي تقوم ببث القيم والأعراف والمعايير التي تؤسس لهذه العلاقات الحيوية في دائرة الحياة الاجتماعية، وتحت تأثير هذا التحويل الثقافي لهذه المؤسسات فإن الطفل يستبطن النمط الثقافي السائد في المجتمع ويتبناه بما ينطوي عليه من قيم ومعايير ومثل أخلاقية أيضا، ومع أهمية هذا التمثيل للنمط الثقافي السائد في المجتمع، عبر التحويل الثقافي للمؤسسات المدرسية، فإن أفراد المجتمع لا يتورعون عن توجيه النقد إلى هذا النظام الثقافي في فترة التحولات والتغيرات الثقافية، ولا سيما التغيرات النوعية والطفورية التي تشهدها ثقافة المجتمع، وتحت تأثير هذه التغيرات يتخلى الأفراد عن بعض الأنماط الثقافية وبعض العناصر في اتجاه تمثل عناصر جديدة تكون أكثر كفاءة

وقدرة على تمثل علاقات فعالة وظيفيا تنسجم مع طبيعة التحولات الحاصلة في الميدان الثقافي. وقد عمل سبندلر على أبداع منهجية جديدة يمكن توظيفها بفعالية في عملية جمع البيانات وتصنيفها وتفسيرها في مجال البحوث الأنثروبولوجية التربوية، وتضمنت هذه المنهجية أداة بحثية أطلق عليها Instrumental activities inventory ويمكن ترجمة هذه التسمية "بكشاف النشاطات والفعاليات" تتضمن هذه الأداة 37 بندا تتمثل في صور ورسوم تغطي مختلف النشاطات الأدائية الثقافية التقليدية والجديدة، ويمكن للتلميذ أو الأفراد المدروسين اختيار الرسوم التي يفضلونها وعلى هذا الأساس يمكن تفسير النتائج بفعالية وفقا لنظام مرمر بصورة منهجية لهذه الأداة. هذا وتشكل الثقافة الإنسانية الموضوع الرئيس للأنثروبولوجيا ولاسيما الأنثروبولوجيا الثقافية Anthro-po-logie culturelle¹⁵، وتدور هذه الأنثروبولوجيا بصورة مركزية حول الثقافة ومكوناتها الأساسية وذلك من منطلق أن الثقافة تنطوي في ذاتها كل التجارب الإنسانية للأفراد الذين ينتسبون إليها، وهي بالتالي تشمل كل ما ليس فطريا في الإنسان أو في الطبيعة الإنساني. وإذا كانت الثقافة كمكون وجودي للإنسان تشكل الموضوع المركزي الأول للأنثروبولوجيا الثقافية، فإن عملية نقل هذه الثقافة وتحويلها تشكل الموضوع المركزي الثاني في هذا الحقل العلمي، وأخيرا تأتي المؤسسات الاجتماعية التي ينتسب إليها الأفراد في المجتمع في المرتبة الثالثة، حيث تشكل هذه المؤسسات - بوصفها تجارب إنسانية - موضوعا مركزيا من موضوعات الأنثروبولوجيا، وقد تخصص في دراستها فرع أنثروبولوجي اتخذ تسمية الأنثروبولوجيا الاجتماعية Anthropologie sociale، ويبدو أن هذه الأنثروبولوجيا تغطي الموضوعات التي يتناولها علم الاجتماع حيث تتقاطع الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع في محاور متعددة في المستوى المنهجي وفي مستوى القضايا التي تشكل موضوعا مشتركا للعلمين الناشئين، فالمدرسة والمؤسسات التربوية على تنوعها تشكل حقلًا مشتركًا لعلم الاجتماع التربوي والأنثروبولوجيا التربوية، وكلاهما يحاول أن يقدم إجابات عن تساؤلات مشتركة مثل: ما هي الوظائف الاجتماعية والثقافية

والسياسية للمؤسسة المدرسية في المجتمع ؟ ما هي العناصر الأساسية لعملية التثقيف والتربية وما هي أليات التنشئة الاجتماعية ؟ كيف تمارس المدرسة وظيفتها التربوية في دائرة الوسط الاجتماعي وما هي طبيعة العلاقات التي تشدها إلى المؤسسات الاجتماعية القائمة في المجتمع ؟ وكيف يمارس الصف المدرسي (الفصل المدرسي) وظيفته بوصفه وحدة ثقافية مصغرة عن المجتمع الذي يحتضن المدرسة ؟ هذه بعض الأسئلة التي تشكل مجالا علميا مشتركا بين الفرعين والعلمين.

خاتمة :

من خلال ما سبق يمكننا القول بأن مفهوم الأنثروبولوجيا التربوية ينطوي على ثلاثة مستويات من الدلالات المتقاطعة، فهناك الأنثروبولوجيا الفلسفية التي تبحث في القضايا النظرية للتربية، والأنثروبولوجيا التي تأخذ طابعا إثنوغرافيا وصفيا قوامه التقصي الوصفي للظروف التربوية الثقافية والاجتماعية التي تحيط بالجماعات والأفراد في سياق تعلمهم وتشكلهم الإنساني، وبالتالي فإن هذه الأنثروبولوجيا لا تبذل جهدا في الاستفادة من المعطيات الفكرية والمنهجية للعلوم الاجتماعية المقاربة لها، ولا سيما علم الاجتماع وعلم اجتماع اللغة وتاريخ النظريات الاجتماعية أما النوع الثالث من أنثروبولوجيا المدرسة التي ترتبط بروابط حيوية مع علم الاجتماع التربوي، كما يمكننا في هذا المقام أن نتحدث عن إثنوغرافيا مدرسية مستقلة عن أبعادها الأنثروبولوجيا الصرفة.

إن الأنثروبولوجيا التربوية لم تنتشر على نحو متواز بين البلدان والدول، إذ يسود الطابع الفلسفي لهذه الأنثروبولوجيا في ألمانيا منذ عهد كانط، وتهيمن أنثروبولوجيا التعلم والتعليم في روسيا بتأثير فيكوتسكي، وتنتشر الأنثروبولوجيا المدرسية في أمريكا الشمالية وفي بريطانيا، في الوقت الذي تحتل فيه الإثنولوجيا التربوية مركز الصدارة في فرنسا وبعض أصقاع أوروبا.

من جهة أخرى، فإن التعاون المشترك بين المؤسسات العلمية للأنثروبولوجيا التربوية والتفاعل بين النشاطات العلمية والبحثية قد أثمر في بناء تصورات عالمية مشتركة حول خصائص هذا العلم واتجاهاته الأساسية النظرية والمنهجية، وقد أسس هذا لبناء نسق من التصورات العامة التي يتسم بها هذا العلم في دورة الاستقلال التي تنهض به إلى مداره الخاص.

إذن الأنثروبولوجيا التربوية ما تزال غائبة في حياتنا الأكاديمية في العالم العربي، وهذا الفرع المعرفي الجديد يحتاج إلى جهود من الباحثين والمفكرين العرب لتقدم هذا العلم والتعريف به تمهيدا للمشاركة في تأصيله علميا عبر الدراسات والبحوث الأنثروبولوجيا الممكنة في دائرة حياتنا المدرسية المثقلة بهموم العصر ومشكلاته.

الهوامش والمراجع:

- 1- محمد الجوهري، علياء شكري: مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، دار المدى، دمشق، 2008، ص48،
- 2- حسين فهميم: قصة الأنثروبولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، الكويت، 1989، ص220،
- 3- حسين فهميم: المرجع نفسه، ص134-136،
- 4- أحمد أبوزيد: بحوث في الأنثروبولوجيا العربية، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، 2002، ص176،
- 5- محمد الجوهري، علياء شكري: المرجع السابق، ص230-243،
- 6- محمد الجوهري، علياء شكري: المرجع نفسه، الصفحة نفسها

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) العدد العشرون 20 يناير 2018

- 7- أحمد إبراهيم خضر :علم الأنثروبولوجيا ماهيته والانتقادات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت 2001،ص92
- 8- أحمد أبوزيد :المرجع السابق ،ص22
- 9- حسين فهميم :المرجع السابق ،ص58-61
- 10-سهام عبد السلام : الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) ،دار الشروق ،القاهرة ،1999،ص125،
- 12- أحمد إبراهيم خضر :المرجع السابق ،الصفحة نفسها .
- 13-كلود ليفي شتراوس، ترجمة، جاسم النشمي : الانثروبولوجية البنيوية، دار الفكر، دمشق،1998ص142
- 14- سهام عبد السلام :المرجع السابق ،ص15
- 15- محمد الجوهري، علياء شكري ،المرجع نفسه ،ص256